فلسطين في أدب غسان كنفاني

د. مصطفى عبد الغني

إن فلسطين تُمثّل العالم برمّته في قصص غسان كنفاني. ومع ذلك، فنحن لا نعدم من فسّر، ولا يزال يفسّر، بعض اعماله تفسيراً مغايراً لروح غسان، وفكره، وموقفه النضالي. وإذ بدا هذا التفسير غريباً بالنسبة الى نقّاده[١]، فانه يبدو أكثر غرابة حين يتحوّل الامر من سوء الفهم الى سوء النيّة. فقد يبدو تفسيراً مجافياً للحقيقة من عارفي غسان. غير انه يبدو، لدى من لم يعرفوه شخصياً، أو فكرياً، غير مقبول؛ اذ يتحوّل سوء الفهم بحسن نيّة الى سوء فهم بسوء نيّة. ومن هنا، يتعدّى الامر التعرّف على غسان من خلال نصّ الى جملة من التساؤلات المريبة. لماذا؟ لأن سوء الفهم الناتج عن حسن النيّة يظل أخطر من سوء الفهم الناتج عن سوء نيّة.

ولنضرب عدة امثلة لسوء الفهم أو سوء النيّة (اذ يتشابهان)، لنرى الى أي مدى فهم نقّاد غسان كنفاني عمله الروائي؟ والى أي مدى تجاوزوا خطابه الروائي الى غيره.

إن ناشره (والمفـروض انه أكثر الاطراف فهماً لابداع غسان)، في مقدمة تفسيره لبطل رواية «الشيء الآخر»، كتب: «كنفاني يجعل من المتهم محامياً يعجز عن الدفاع عن نفسه، من اجل ان يعطي الطابع البوليسي، الذي يلف الرواية، ابعاداً سيكولوجية وفلسفية. انها ليست رواية بوليسية تنتهي الى تمجيد البوليس، أو الاعتراف بذكائه؛ وليست مجرد رواية من عالم الجريمة... كنفاني ينطلق من حادثة القتل الغامضة، من اجل ان يحاول محاكمة القضايا الكبرى التي تعترض الحياة الانسانية: الحب، الزواج، العدالة، الخيانة...»[٢]. وعلى هذا النحو، فهذه الرواية عنده تدخل عوالم «الجريمة والجنس... الى غير ذلك»، وهو يردّد هذا اكثر من مرة.

ونخرج من عالم الجريمة والجنس عند كاتب الى عالم الضجر والوجودية المجردة عند كاتب آخر، محاولاً تفسير الرواية بكثير من التشويش[٣].

الأكثر من هذا غرابة ان البعض الثالث لا يهتم بالرواية كليّة، مكتفياً بذكر اسمها، فقط، مبرراً أنصرافه عنها، بحجة، هي عذر أقبح من ذنب، انه لم يعثر عليها. فهو «لم يعثر عليها ضمن أعمال غسان كنفاني»[٤].

وعلى هذا النحو، يتحوّل أدب غسان كنفاني المفترض انه رؤى فنية الى معميّات، وينتفي دور الفن في مواجهة الوثيقة. فاذا كان الفن قادراً على منح تأثيره لمن يريد، فان الوثيقة تظل مستعصية على التفسير بدون السعي الى ذلك. وبدلاً من ان يتقدّم الادب ليترك «وثيقته» العفوية؛ فانه يتراجع الى ما دون الوثيقة.

وباختصار، فان العمل الفني، بهذا الفهم المغلوط، لا يسهم في كتابة التاريخ الفلسطيني، بل